

على الحافة التغيرات المنتظرة

حبيب معلوف

هل ما نشهده من موجات حر هنا وفيضانات هناك، حرائق هنا وأوبئة هناك... هو الدليل على تغير المناخ فعلا؟

يمكن الاجابة بنعم. فهذه الظواهر المناخية هي ما كان يحذر منه خبراء المناخ المكلفون من الامم المتحدة في تقاريرهم منذ العام ١٩٩٥ والدراسات من قبل كبار العلماء منذ العام ١٩٨٨، بأن هذه الظواهر هي جزء من السيناريوهات والتحذيرات التي تحدثت عنها تلك التقارير عندما كانت تنبه الى ان ظاهرة تغير المناخ العالمي هي ظاهرة «إنسانية» ناجمة عن حضارة الإنسان المتقدمة، لا سيما عن تراكم الانبعاثات في الغلاف الجوي والمنبعثة من الأرض، ولا سيما من احتراق الوقود الاحفوري لإنتاج الطاقة .

بالإضافة الى جواب «نعم»، يمكن الإجابة بـ«لا». المناخ لم يتغير، بل نحن الذين تغيرنا. فعلى المستوى الشعبي، نحن تغيرنا فعلا. اعتقدنا لوهلة أننا حققنا تقدما ملحوظا عندما «تكيفنا» مع التغيرات المناخية باستخدامنا للمكيفات، فحولنا الحر برودة صيفا، والبرد حرارة شتاء. ويقدر ما «نجحنا» في التكيف، فقدنا القدرة على التحمل خارج أنظمة التكيف في الغرف والسيارات. وهكذا بات يمكن القول أيضا، مع التسليم بمسألة تغير المناخ، ان كل شكوى اليوم من زيادة حر، هي ناجمة عن ضعف في التحمل والتكيف عند الإنسان الحديث المتكيف، أي الذي يعيش في نظام مكيف .

بالإضافة الى ذلك، يتحدث البعض اليوم عن المضار الصحية للتكييف الاصطناعي، ويشكو البعض من آلام في أنحاء مختلفة من الجسم نتيجة تقلص العضلات بسبب الانتقال السريع من أجواء الحر الى أجواء التكيف، إلا أن أحدا لا يستطيع أن يتكهن أيضا بما سيكون تأثير التكيف على إنسان المستقبل، على عظامه ودماغه وأجزاء أخرى من أعضاء جسمه. لا أحد يستطيع التكهن ما ستكون تأثيرات استخدام التبريد في الأنظمة المفرطة في التكيف على نظام الجسم الإنساني عامة .

إلا أن تقارير خبراء الأمم المتحدة تتحدث عن سيناريوهات أكثر تعقيدا لآثار تغير المناخ من زيادة حرارة الأرض وذوبان الجليد وزيادة الفيضانات وغيرها من المظاهر المناخية المتطرفة. هناك سيناريوهات تتحدث في حصيلتها عن فقدان التنوع وعن إمكانات جديدة لحدوث تغييرات في نظام الأرض، يمكن ان ينجم عنها تغييرات كونية، وظهور أمراض وأوبئة جديدة وسريعة، يمكن ان تتسبب في تهديد وجود النوع الإنساني نفسه، قبل ان يستطيع العلم والطب الحديث ان يفك شيفرتها وان يلحق بتلك التغييرات السريعة .

ان يقال ان ظاهرة تغير المناخ يمكن ان تتسبب في فقدان بعض الأنواع في الطبيعة وفي المساس في فكرة التنوع، فهي نتيجة بغاية الخطورة وتتطلب تأملات عميقة ومتأنية من قبل علماء وفلاسفة العالم على السواء .

فالعالم (والطبيعة) بالتعريف هو عالم التنوع والاختلاف والتعدد، وما كانت محاولات الإنسان للتوحيد والبحث عن الكوني والجهوي في الأشياء سوى محاولات لتسهيل فهم العالم والتكيف معه وليس لتغييره. وما اللجوء إلى الرموز والتجريد والبحث عن المعادلات والقوانين إلا محاولة للفهم والعلم، وليس للسيطرة والتحويل في قوانين الطبيعة وفرض القوانين الإنسانية عليها .

فكيف يطلب اليوم من العلم، نتاج التحدي لقوانين الطبيعة، ان يعالج الاختلالات المناخية الناجمة أصلا عن ذلك التحدي؟

كيف يمكن لعلم، شعر يوما بالتفوق، وسخر من التفسيرات الماورائية للظواهر المناخية،

التي كانت تعتبر ان العواصف وموجات الحر هي بمثابة غضب إلهي، ان يواجه اليوم
سخرية الطبيعة منه، وإمكانية تفسير ما يحدث بمثابة غضب الطبيعة نفسها من
التصرفات الإنسانية وادعاءاتها العلمية؟
فهل تغير الظواهر المناخية المستجدة ومشكلة تغير المناخ من نظرتنا الى العلم
والحضارة والتقدم، كما غير العلم من نظرتنا الى الطبيعة يوماً؟